

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

European Council for Fatwa and Research

حقوق الأقليات الغير المسلمة

في الدولة العثمانية

إعداد

مصطفى ملاؤ غلو

بحث مقدم

للدورة السابعة عشرة للمجلس - سراييفوا
ربيع الآخر / جمادى الأولى 1428 هـ / مايو 2007 م

حقوق الإنسان في الإسلام

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين. آمين وبعد:
تعريف حقوق الإنسان:
أولاً: الحقوق:

الحقوق: جمع حق، والحق ضد الباطل، وكل حق يقابله واجب، والحق في اللغة: الثابت، ويستعمل مجازاً، واصطلاحاً إسلامياً، وقانونياً، وأخلاقياً، وفلسفياً، وله معان عدة، واختلف العلماء في الشريعة والقانون على تعريفه بألفاظ عدة....

والتعريف المختصر للحق هو: مصلحة مقررة شرعاً.

فالحق مصلحة ثبت للإنسان أو لشخص طبيعي أو اعتباري، أو لجهة على أخرى، والمصلحة هي المنفعة، ولا يعتبر الحق إلا إذا قرره الشرع والدين، أو القانون والنظام والتشريع والعرف، وبالتالي يكون معنى الحق في موضوعنا: مصلحة ومنفعة قررها المشرع، لينتفع بها صاحبها، ويتمتع بمزاياها، وبالتالي يكون واجبا والتزاما على جهة، أو أخرى، وقد يكون الحق مقرر أو ثابتاً بنظام، أو قانون معيناً أو تشريع خاص، أو إعلان دولي، أو اتفاقية ثنائية دولية (1) والإنسان: هو هذا الكائن العظيم، الفريد الذي انطوى فيه سر الكون وتعلقت به المشيئة الإلهية بالإستخلاف في الأرض، وتوقفت عليه الحياة فيها، وارتبطت به الحضارة... هذا الإنسان هو الذي اختاره الله تعالى من سائر خلقه، وميزه على غيره، وخلق له حكمة، ووجهه لهدف، وكلفه بإعمار الأرض،... وحمله الأمانة والمسؤولية... (2)

وكرم الله سبحانه وتعالى على سائر مخلوقاته بقوله: ((ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً.)) (3) لا شك أن مفهوم حقوق الإنسان في الإسلام غير متعارف عليه الإنسانية في عصرنا الحاضر. وإنما أصل هذه المسألة في الإسلام هي حقوق العباد. هذا متعارف عليه الأمة الإسلامية من بدئ الإسلام إلى زماننا الحاضر.

الفرق بين اصطلاح ((حقوق الإنسان)) واصطلاح ((حقوق العباد)): فالاصطلاح ((حقوق الإنسان)): كلمة استحدثها الإنسان بنفسه لنفسه. إذا أراد أعطى وإذا لم يعط. وصاحب الحق إذا كان قوياً يحصل إلى حقه وإذا كان ضعيفاً ضاع حقه. ومهما كان هناك بعض المراكز والمحاكم الرسمية في أوروبا والعالم رأينا كيف يحكم ضد المسلمين من غير مستند ودليل شرعي وعقلي. كما حصل في المحكمة العدلية الأوروبية في لاهاي في موضوع الحجاب وحزب الرفاح الإسلامي وأمثلة ذلك كثير.

على كل حال، المشكلة ليست في الإصطلاحات وإنما في التطبيق. ومع ذلك اصطلاح ((حقوق العباد)) لها معنى أوسع وأعم من اصطلاح ((حقوق الإنسان)). لأن اصطلاح: ((حقوق العباد)) تحمل هذه المعاني العالية:

- 1- الخالق جل جلاله. لأنه هو المعبود سبحانه وتعالى.
- 2- العبد الذي هو مخلوق.
- 3- الحق المستمد من إحدى أسماء الله الحسنى الذي هو: ((الحق)). وعلى هذا عندما نقول ((حقوق العباد)) تحتوي هذه العناصر الثلاثة. وكل من هذه العناصر يذكر العبد بمعبوده. ولذلك الإنسان المسلم لا يظلم ولا يظلم لأنه يؤمن بالله جل جلاله وأنه سيحاسب يوم القيامة.

(1) حقوق الإنسان في الإسلام. أ.د. محمد الزحيلي.

(2) المرجع السابق.

(3) سورة الإسراء: 70-71.

الأقليات الغير المسلمة في المجتمع الإسلامي :

قبل أن أدخل في موضوع حقوق الأقليات في الدولة العثمانية اذكر أسس العلاقات والحقوق بين المسلمين وغير المسلمين في العهود الإسلامية قبل العهد العثماني بشكل موجز : ذكر شيخنا العلامة الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه الغير المسلمين في المجتمع الإسلامي في قسم التمهيد تحت عنوان: المجتمع المسلم مجتمع عقيدة وفكرة وقال:

المجتمع الإسلامي مجتمع يقوم على عقيدة وفكرة ((أيدولوجية)) خاصة، منها تنبثق نظمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه. هذه العقيدة أو الفكرة ((الأيدولوجية)) هي الإسلام وهذا هو معنى تسميته ((المجتمع الإسلامي)) فهو مجتمع اتخذ الإسلام منهاجا لحياته، ودستور الحكمه، ومصدر الشريعة وتوجيهه في كل شؤون الحياة وعلاقاتها، فردية، واجتماعية مادية، ومعنوية، محلية ودولية.

ولكن ليس معنى هذا أن المجتمع المسلم يحكم بالفناء على جميع العناصر التي تعيش في داخله وهي تدين بدين آخر غير الإسلام.

كلا، إنه يقيم العلاقة بين أبنائه المسلمين، وبين مواطنيهم من غير المسلمين على أسس وطيدة من التسامح، والعدالة، والبر، والرحمة، وهي أسس لم تعرفها البشرية قبل الإسلام، وقد عاشت قرونا بعد الإسلام وهي تقاسي الويل من فقدانها ولا تزال إلى اليوم، تتطلع إلى تحقيقها في المجتمعات الحديثة، تكاد تصل إليها في مجتمع ما، إلا غلب عليها الهوى والعصبية، وضيق الأفق والأنانية، وجرتها إلى صراع دام مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الجنس أو اللون. وبعد أن أوضح فضيلته هذه الحقائق ذكر دستور العلاقة مع غير المسلمين وقال:

وأساس هذه العلاقة مع غير المسلمين قوله تعالى: ((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون.)) سورة الممتحنة: 9، 8

فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعا، ولو كانوا كفارا بدينه، مالم يلقوا في وجهه ويحاربوا دعاته، ويضطهدوا أهله.

ولأهل الكتاب من بين غير المسلمين منزلة خاصة في المعاملة والتشريع.

والمراد بأهل الكتاب: من قام دينهم في الأصل على كتب سماوي، وإن حرف وبدل بعد، كاليهود والنصارى الذين قام دينهم على التوراة والإنجيل.

قال قرآن ينهى عن مجادلتهم في دينهم إلا بالحسن، حتى لا يوغر المرء الصدور، ويوقد الجدل واللدن نار العصبية والبغضاء في القلوب، قال تعالى: ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون.)) سورة العنكبوت: 46

(غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: الأستاذ الدكتور: يوسف القرضاوي.)

على هذه الأسس كانت العلاقات والحقوق بين المسلمين وغير المسلمين في عهد النبوي والخلفاء الراشدين وبعدهم في العهود الإسلامية.

وخير مثال على هذا ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((أوصيكم بزمة الله فإنها ذمة نبيكم))

الأقليات الغير المسلمة في العهد الأموي:

حقوق الأقليات الغير المسلمة وتسامح المسلمين معهم في العصر الأموي لا يختلف عن ما كان الوضع والحال في العصر الخلفاء الراشدين لأن مصاد الشريعة في هذا العصر كان أيضا القرآن، والسنة، والإجماع والقياس، وكل هذه المصادر تأمر بمعاملة الكفار الذين لا يحاربون بالحسن وبأهل الكتاب خاصة بالتي هي أحسن وكان التطبيق في العهود الإسلامية ليس إلا هذا، ما عدا بعض الاستثناءات في بعض المراحل والأشخاص، وهذه الاستثناءات لا تغير القاعدة العامة في معاملة

المسلمين بغير المسلمين. وسأكتفي في هذا الموضوع بقول المستشرق لول ديورانت، من باب وشهد شاهد من أهله حيث يقول في كتاب ((قصة الحضارات)): ((لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لانجد لها نظير في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص، وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير، ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير لمسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ، والأرقاء، والشيوخ، والعجزة، والعمى الشديد والفقير، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها 2% من الدخل السنوي وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخدمون فيه لزعمائهم، وقضائهم وقوانينهم.)) (1)

(1) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: الأستاذ الدكتور: يوسف القرضاوي.

الأقليات الغير المسلمة في العصر العباسي:

أما العصر العباسي- عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، ومكانة أهل الذمة فيه، فيكفينا مؤنة الحديث فيه صفحة أخرى ننقلها من كتاب ((الإسلام وأهل الذمة)) للدكتور الخربوطلي، لأنه يعتمد فيما يقرره على المراجع التاريخية الأساسية، أو على كتابات المستشرقين أنفسهم:

((اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء، مثل جرجيس بن بختيشوع طبيب الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور، وقد وثق الخليفة فيه وأكرمه، ومن هؤلاء جبرائيل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد، الذي قال الرشيد عنه: ((كل من كان له حاجة إلي فإليخاطب بهاجبريل، لأنني أفعل كل مايسألني فيه، ويطلبه مني، وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم شهريا. ومن هؤلاء أيضا ماسويه الذي كان الرشيد يجري عليه ألف درهم سنويا، ويصله كل سنة بعشرين ألفا. وأشاد ترتون(1) بتسامح المسلمين فقال: والكتاب المسلمين كريمون في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم، حتى ليسمون حنين ابن اسحق برأس أطباء عصره، وهبة الله ابن تلميذ أبوقراط عصره، وجالينوس دهره. وكان بختيشوع ابن جبرائيل ينعم بعطف الخليفة المتوكل حتى إنه كاد يضاهيه في ملابسه، وفي حسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة، ومباراته في الطيب والجواري والعبيد. ولمارض سلمويه بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جريا على عادة النصارى، وامتنع المعتصم يوم موته عن أكل الطعام. وأما يوحنا بن ماسويه فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ الرشيد إلى المتوكل وكان لا يغيب قط عن طعامهم، فكانوا لا يتناولون شيئا من أطعمتهم إلا بحضوره، ومن ثم لم يكون هناك أدنى كلفة بينه وبين الخليفة المتوكل، فكان الخليفة يدابه في رفق ولين. واشتهر من بين أهل الذمة كثير في ميدان الآداب والفنون، فيقول ترتون: ظلت علاقات العرب برعاياهم في ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، بل إن كثيرا من هذه المودة استمر بعد هذه الفترة، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالا من غير المسلمين. ودرس كثير من الذميين على أيدي مدرسين وفقهاء مسلمين. من ذلك أن حنين بن اسحق درس على يد الخليل بن أحمد وسبيويه، حتى أصبح حجة في العربية(2) وتتلذذ يحيى بن عدي بن حميد- أفقه رجال عصره في المنطق- على يد الفارابي، ودرس ثابت بن قرة على يد علي بن الوليد من رجال المعتزلة، وكان حسن الخط، متمكنا من الأدب، وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره، وقوة معرفته، ومالبث أن اعتنق الإسلام.)) (3)(4)

(1) أهل الذمة في الإسلام.

(2) الأصبهاني الغاني.

(3) ابن ابي اصبيعة طبقات الأطباء

(4) الغير المسلمين في المجتمع الإسلامي: أ، الدكتور: يوسف القرضاوي.

ويضرب المؤرخ ترتون لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مثلا فيقول: ((يمكن اتخاذ إبراهيم بن هلال مثلا لما قد يصير إليه الذمي من بلوغ أرفع المناصب في الدولة، فقد تقلد إبراهيم الأعمال الجليلة، فامتدحه الشعراء، وعرض عليه غز الدولة باختيار ابن معز الدولة البويهى أن يوليه الوزارة إن أسلم فامتنع، وكان إبراهيم بن هلال حسن العشرة مع

المسلمين عفيفا في مذهبه، وكان بينه وبين صاحب إسماعيل بن عباد، والشريف الرضي مراسلات ومواصلات رغم اختلاف الملل، وكان إبراهيم حفظا للقرآن. واهتم الكتاب المسلمون بالأديان والمذاهب . فكان ابن حزم الأندلسي (456هـ - 1064م) ملما بالإنجيل واللاهوت المسيحي، الماما تاما. وألم ابن خلدون بالإنجيل والتنظيمات الكنسية، وتحدث عن بعضها في مقدمته. وكان القلقشندي يرى ضرورة معرفة الكاتب بأعياد الذميين الدينية. وذكر المقرئ كثيرا من التفاصيل عن أعياد النصارى واليهود، وتحدث عن فرقهم المختلفة، وذكر أسماء بطارقة الإسكندرية، وتحدث كل من القزويني والمسعودي عن طوائف أهل الذمة...

واعترف ترتون بتسامح الحكام المسلمين فقال: كان سلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين، وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصارى واليهود، بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحياء أرفع المناصب وأخطرها فاكتنروا الثروات الضخمة، فتكاثرت لديهم الأموال الطائلة، كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية. (1)

(1) المرجع السابق.

الأقليات الغير المسلمة في الأندلس:

لاشك أن معاملة المسلمين الأقليات الغير المسلمة في العهود الإسلامية كلها كانت وفقا للشريعة الإسلامية الغراء. لأن المسلمون الذين تحملوا مسؤولية الإدارة للناس كانوا يعتقدون أنهم ورثوا هذه

المسؤولية من نبيهم صلى الله عليه وسلم. حيث كان يقول عليه الصلاة والسلام: ((إن الله أمرني بمدرأة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض.)) (1) وكانت معاملة المسلمين للأقليات الغير المسلمة في الأندلس المسلمة أيضا مثلما كانت الوضع في العهود الإسلامية السابقة، ويعتبر العهد الأندلسي مثالا وقوة للإنسانية عبر التاريخ. ولذلك كثير من المؤرخين والباحثين المسلمين وغير المسلمين يذكرون هذا الدر بأنها نموذج يمكن تطبيقها في عصرنا الحاضر.

وخير شاهد على ذلك كما ذكر المؤرخ المشهور: درابر أنه: ((عندما فتح المسلمون الأندلس في سنة 711م استطاعوا ولأول مرة في تاريخ البشرية الاندماج الصحيح مع الأديان والمذاهب الأخرى على أسس الإسلام الذي جعلهم جميعا في أمان وتفاهم وصارت الأندلس قدوة الباحثين عن الحياة الفاضلة.)) (2)

(1) رواه الديلمي.

(2) وحشية الغرب. الدكتور: سادات جرجي.

حقوق الأقليات في الدولة العثمانية:

ذكر الباحث المتخصص في التاريخ الدولة العثمانية الأستاذ الدكتور: أحمد آق كوندوز رئيس وقف البحوث العثمانية في بحث له في موضوع: حقوق القليات في الدولة العثمانية وقال:

"...وكانت الرعاية في الدولة السلجوقية وبدايات الدولة العثمانية تصنف إلى فئتين: مسلمين، أو غير المسلمين. ومن جلوات القدر أن الأروام والأرمن هم جميعاً نصارى، والأتراك جميعاً مسلمون. ولذلك، صنف النظام القانوني العثماني المقيمين في الممالك الإسلامية إلى أصناف ثلاثة حسب دينهم وتبعيتهم الوطنية:

- 1- المسلمون،
- 2- الذميون: هم غير المسلمين المقيمين في دار الإسلام بعقد الذمة في ظل الحكم الإسلامي برضاهم.
- 3- المستامنون: هم غير المسلمين من البلاد الأخرى المسموح لهم بدخول دار الإسلام والإقامة لمدة مؤقتة.

...تمتع المواطنون الذميون في الدولتين السلجوقية والعثمانية بالحقوق والحريات الممنوحة للمسلمين بالتساوي. ماعدا بعض الاستثناءات القليلة.

وليس الإدعاء باستحداث هذه الحقوق والحريات مع مراسيم "التنظيمات" أو "الإصلاحات" الأفرية أوروبية جوفاء... فاقدوا العلم بالتاريخ، عن جهل أولغرض في أنفسهم. لأن الدولة الإسلامية التركية (العثمانية) التزمت بالقاعدة التي بناها الحديث الشريف: "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا". وحكم المستأمنين لا يختلف عن حكم الذميين في شيء، إلا ما يترتب على إقامتهم مدة مؤقتة في دار الإسلام، فيعفون من التكاليف التابعة من حق المواطنة الدائمة ونعمها.

- أما أنواع هذه الحقوق (في الدولة العثمانية) والحريات كما يلي:
- 1- الحقوق السياسية والإدارية: ونعني بها حقوقاً خاصة بالذميين حصراً، لأمرين اثنين هما:

أولاً: عمل الذميين في الوظائف العامة (وظائف الدولة) حق مبنى على المواطنة في دار الإسلام، فلهم حق التعيين في الوظائف العامة، ماعدا الوظائف المتعلقة بشؤون الدين الإسلامي، والوظائف المتعلقة بالحكم مثل رئاسة الدولة وقيادة الجيش وإمارة السنجق والصدارة العظمى والقضاء الشرعي. هذا ما نفذ في الدولة العثمانية. بل عين بعض أهل الذمة وزراء فيما بعد "التنظيمات" وقد أنيطت إدارة طوائف أهل الذمة إلى رؤساء روحانيين تنتخبهم الطائفة من بينها لتمثلها أمام الدولة مثل البطارقة والميتروبوليت للنصارى، ورئيس الخاخامية لليهود. ثانياً: لما كان الخليفة مسلماً بالضرورة، فلزم الإسلام فيمن ينتخبه ويختاره ولذلك أيضاً انحصرت العضوية في مجلس الشورى، وهو مجلس تنفيذي عال، وحق انتخاب الأعضاء بالمسلمين وحدهم. ولكن قانون انتخاب المبعوثين (أعضاء البرلمان) لسنة 1876، منح الذميين حق عضوية البرلمان وحق الانتخاب للذميين متجاوزاً العرف السائد قبله. وفي الواقع، تسبب هذا الحق الجديد في زيادة الضعف للدولة العثمانية وشارك في انهيارها... (1)

(1) حقوق الأقليات في الدولة العثمانية: أ.د. أحمد أق كوندوز.

2- الحقوق والحريات السياسية: ونجمعها في مجموعتين:

أ- تمتع الذميون بالحقوق والحريات الشخصية كالمسلمين سواء بسواء. فهم متساوون في حرية التنقل والسكن والحقوق الشخصية، ما عدا استثناءات يسيرة. لقد أقرت هذه الحريات والحقوق في عصور لم يعترف الأوروبيون فيها بإنسانية المرأة، فسبقنا العالم شرفاً وفخراً، وملاً بالتاريخ بنماذج يقتدى بها.

فالاستثناء الوحيد من حرية التنقل هو المنع من دخول الذميين من دخول الذميين إلى الحجاز وفقاً (تطبيقاً) للأحكام الشرعية. والجدير بالإشارة هنا، أن حرية السكن للذميين في الدولة العثمانية نظمت على قواعد لا تلحق ضرراً بهم، ولا بالمسلمين. فأسكن أهل الذمة في أحياء لجماعات اليهود أو الروم أو الأرمن مجاورة لمركز المدينة.

فمثلاً صدر فرمان (مرسوم سلطاني) سنة: 1582

يمنع الذميين من السكن في حي "أيوب" (توقير الأبي أيوب الأنصاري) (المدفون في استانبول) من بعض ما يستحله أهل الكتاب وحفاظاً على مشاعر المسلمين وتحميلهم ما قد لا يطيقون) وأيضاً، يوجد لدينا بعض الفرمانات تمنع أن يعلو بنيران أهل الذمة على بنیان المسلمين شعاراً على سيادة الإسلام وحاكميته. وفيما عدا هذه الاستثناءات اليسيرة، يصف مستشرق مجرى الحقوق والحريات الشخصية للذميين في عصر العثمانيين فيقول: "عشنا تحت الحكم العثماني خمسمائة سنة، ولو شأؤنا أن يخلو باحق الحيات لنا، فقتلوا في كل يوم ذمياً، لما بقي أثر من شعوب اليونان والصرب والبلغار والوم!"

ب- تمتع الذميون بحرية الدين والمعتقد في الدولة العثمانية كما امرت الأحكام الشرعية الإسلامية. فالأصل في الشريعة الإسلامية ترك الذميين وشأنهم في دينهم. ولكن لا تنكر (بعض القيود التي وضعها الشرع لمعادلة حرية الدين مع حاكمية الإسلام. فمن الأحكام الإسلامية في القانون الدولي ألا تمس معابد الذميين في البلاد المفتوحة صلحاً، لكنها تمنع من إنشاء معابد جديدة لهم. أما في البلاد المفتوحة عنوة، فالأمر لولي الأمر أينما يرى المصلحة، (أي) إن شاء تركها وإن شاء هدمها. ولم يمس السلطان محمد الفاتح أكثر الكنائس بشيء مع أن القسطنطينية فتح بالسيف وأجاز له الشرع (والعرف الدولي) هدمها.

فلا أدل من ذلك على توقير المسلمين العثمانيين لحرية الأديان والمعتقدات. وقد ثبت ترك كنائس القسطنطينية على حالها في وثيقة تحوي فتوى لشيخ الإسلام أبي السعود في بيان الحال شرعاً (1) كذلك تكفل بضمان سلامة الكنائس لملك الصرب برانكوفج بالحفاظ على كنيسة في جوار كل مسجد إذا خضع للدولة العثمانية، حينما لم يكن بد لملك الصرب من الإختيار بين الإنقياد لجيش محمد الفاتح أو الإنضمام إلى حكم ملك المجر. وكان الأخير قد أجابه حين الإستطلاع عن مصير كنائس الصرب البروتستانية بأنه سوف ينشئ كناس للكاتوليك في كل مكان من بلاد الصرب، ويهدم كل كنيسة بروتستانية.

ومن الأحكام الإسلامية أيضاً، جواز اظهار أهل الذمة لشعائر دينهم في معابدهم، مثل الصليب والناقوس، ومنع اظهارها خارج معابدهم في المدن التي يسكنها المسلمون. ومنع استخدام هذه الشعائر في الدعاية لدينهم ومعتقدهم أصلاً. ومن الأحكام الإسلامية كذلك، جواز عقد الإجتماعات الدينية لأهل الذمة وتعليم طائفتهم بشرط اجتناب المحذورات الشرعية.

(1) ترجمة فتاوى لشيخ الإسلام محمد أبي السعود أفندي.

فكان لأهل الكتاب مدارس خاصة في استانبول لتعليم أبناء طائفتهم دينهم. وهي شواهد لازالت باقية على حرية الدين والمعتقد في الدولة العثمانية.

وقد تمتع الذميون أيضا، من الخدمات العامة التي تنفق عليها الدولة، ومن مؤسسات الضمان الاجتماعي (باستثناءات موضوعية طفيفة)، ومن حق العمل. ولا نخوض هنا في تفصيلها.

3- الحقوق الأخرى: ونعني بها مساوات الذميين بالمسلمين في الحقوق كافة، مما عدا في طائفة من الأحكام الجزائية وحقوق العائلة والميراث الناشئة من مراعاة الاختلاف في الدين والمعتقد. فلا فرق بين المسلمين وأهل الذمة في الحقوق العامة لإمراعاة للعقائد والأديان. فهم سواء مع المسلمين في الأحكام وأمام القانون...

2- التكاليف والواجبات المطلوبة من الأقليات الغير المسلمة في الدولة العثمانية:

لا بد من واجبات وتكاليف تتوازن مع القوق والحربات التي أقرها النظام القانوني العثماني، فنذكرها هنا بالإيجاز:

أولاً: الجزية المفروضة على أهل الذمة لمن تتوفر فيهم شروطها، يعادلها الإعفاء من الخدمة العسكرية. فالجزية ليست تكليفا زائدا بلا حق يعادله.

ثانياً: يكلف أهل الذمة بدفع الخراج عن الأراضي الخراجية. وقد عد العثمانيون أراضي الأناضول والروم ألي (الممالك الأوروبية) أراضي "ميرية"، يعنى المسمى الأراضي الخراجية في الأصل، فتساوى المسلمون مع أهل الذمة في دفع هذه الضريبة في هذه الممالك الشاسعة.

ثالثاً: تقرررت الضرائب الجمركية على أهل الذمة بنسبة أعلى من المسلمين. ومقابل ذلك خفف عنهم "بالإمتيازات" الخاصة.

زيادة على هذه واجبات، كلف أهل الذمة بالإمتناع عن التصرفات المسيئة إلى الإسلام أو المهينة للمسلمين، وعن الدعاية إلى دينهم، وعن بيع الخمر ولحم الخنزير في مدن المسلمين وسمح لهم ببيعهما في مدنهم، وعن التشبه بالمسلمين في الزي والهيئة الخاصة، ولذلك وضعت الدولة العثمانية قيوداً معينة على أهل الذمة في ملبسهم. (1)

(1) حقوق الأقليات في الدولة العثمانية: أ.د. أحمد آق كوندوز. رئيس وقف البحوث العثمانية.

فرمان السلطان محمد الفاتح في حقوق وحرىات الأقليات الغير المسلمة:

لم يعرف أجدادنا المسلمون أسلوب الكيل بمعياريين حسب الهوى، بل عملوا حالاً بما قالوا السنا، إلا غلاطياً يسيرة لا ينجوا من الوقوع فيها بنى البشر مطلقاً. وخير برهان على ذلك، فرمان (مرسوم) للسلطان محمد الفاتح، وهو أمر وعهد عاهد به أهل غلاطية (1) وضمن فيه حقوق الذميين.

"هذا عهد ذمي غلاطية عاهدهم أبو الفتح السلطان محمد خان لما فتح استانبول كتب بالومية وختمه بالطغرة العثمانية:"

أنا السلطان محمد خان ابن السلطان مراد، أقسم بالله خالق السموات والأرض، وبحق روح حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم الطاهرة المنورة المطهرة، وبحق المصاحف السبع، وبحق روح جدي، وبحق روح أبي، وبحق حياتي، وبحق حياة أولادي وبحق السيف الذي أحمله، أذيرسل أهل "غلاطية" وأنسها مفتاح القلعة المذكورة طلباً للسلام إلى عتبتني العالية مع "بابلان براويزين" و "ماركيزه فرانكو" وترجمانهم "نيكوروبابو هو"، معلنين الطاعة والإنقياد لي، فإني:

1- قبلت أن يقيموا عباداتهم (طقوسهم) وأركانهم على الوجه الجاري حسب الأسلوب القديم القئم في عاداتهم وأركانهم، وأن لا أهاجمهم لهدم وتخريب قلعته.

2- وأمرت أن يقر في أيديهم أموالهم وأرزاقهم وأملاكهم ومخازنهم وبساتينهم وطواحينهم وسفنهم وقواربهم وعموم أمتعتهم ونسائهم وأولادهم وعبيدهم وأماؤهم، ولا تعرض النشيء ولا أكرههم على شيء في ذلك.

3- وعليهم أن يعملوا ولهم أن يسافروا برا وبحرا مثلما في سائر ممالك، فلا يمنعهم ويزاحمهم إنسان، وأن يؤمنوا ويسلموا.

4- وأن أضع عليهم الخراج يؤدونه عاماً بعد عام كغيرهم، وأن أراهم بنظري الشريف، فأحميمهم مثل ممالك الأخرى.

5- وأن تكون كنائسهم ملك أيديهم ويقر واحسب طقوسهم، ولكن لا يدقوا جرساً أو ناقوساً، وأن لا أستولي على كنيسة لهم لأجعلها مسجداً، وهم لا يبنون كنيسة جديدة.

6- وأن يذهب ويجيء تجار "جنوة" بحرا وبراً ويدفعوا جمرهم على العادة الجارية، ولا يعتدي عليهم إنسان.

7- وأمرت أن لا يؤخذوا للجنود الجدد (الإنكشاري)، ولا يجبر كافر على الدخول إلى الإسلام بغير رضاه، وأن ينصبوا من بينهم من يختارون صاحباً (راعياً) لمصالحهم.

8- وأمرت ألا يشغل دورهم صقار (من صنوف الجيش) أو عبد (موظف على مصلحة للدولة)، وأن يسلم ويعفى أهل القلعة المذكورة وتجارتها من عمل السخرة. ليعملوا على هذا الوجه ويعتمدوا علامتي الشريفة.

تحريري في أواخر جمادي الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة (857 هجري- 1435 ميلادي). (2)

(1) غلاطية: مركز للتجارة على مرمى من أسوار القسطنطينية، تقع في وسط استانبول، سلم رهبانها المفاتيح بلاقتال. وهذا العهد وثيقة تاريخية مهمة في القانون الدولي الإسلامي.

(2) حقوق الأقليات في الدولة العثمانية: أ، د، أحمد آق كوندوز. رئيس وقف البحوث العثمانية.

فرمان السلطان محمد الفاتح في حقوق وحریات الاقلیات الدينية

عظم ذمیلک عهد نامہ
فتح ایلمک کہ ویر شد روم یاز بلیب اوزر بنظر اعلیٰ

بن اوزکیشاه دارکوشنشا، سلطانہ محمد خانہ بن سلطانہ (اوم پانی ابرارم)
بن کونکا بر اوده پور و کار حقیقہ و حوزہ کوکک علیہ الفلاح و السلام یکا کشتی مطهر
رو حقیقہ ویر یا معنی حقیقہ ویر یاز ویر یک پنیامبر (حقیقہ وروم)
رو حقیقہ ویر یا معنی حقیقہ ویر یاز ویر یک پنیامبر (حقیقہ وروم)
شده کلاه و غلط نم خلی و موم زاده ای عتبه علیا به و سنان ایحده بابا
پرز ویرین و مار کدوه و نقو و کور غلامان بنقور و ز بابو حور ایلمه قلعه
مردن و بن مفتاح کوزد و بن بقا قول اولمعه اطاعت و انقیاد کور و ز شاهر
بنر فی بنول ایلمه مک کوز و کور انیلر و ارکاکلر نه و جله جارب اوز کلاه
نه لوله اولمور اوزر عا و تدرین و ارکاکلرین برینه کتور لریله اوزر لری
وار و بن قلعه لری بیقور و زین انیمیم پور و مک کوز و کور مالار و ز ز قاری
و مکملر و مخزنلر و باغلر و و کور سنار و کسار و و سدر لار و باطله
ساعلر و حوزلر و و غلامان و و زلر و جارب لری کوز و کور

12

الحقوق الذي أعطاه العثمانيون للفرانسيسكيين البوسنويين في سنة 1463م

بعدالفتح الإسلامي العثماني للبوسنة والهرسك، 28مايو 1463الميلادي، كتب محمد الفاتح رحمه الله فرمانا(مرسوما)يبين فيها الحقوق والحريات للفرانسيسكيين البوسنويين الكاثوليك، ويقول فيها:

((أناالسلطان محمد الفاتح خان، أعلن للعالم جميعا:

- 1- بأن الفرانسيسكيين البوسنويين الذين أعطي لهم فرمان السلطانية، هم تحت حمايتي.
- 2- وأمر بأن لايزعج أحد هؤلاءالذين ذكراسمهم(في هذاالفرمان)ولا يضر(ولايخرب)كنائسهم.
- 3- فاليعيشوافي دولتنا في راحة(وسعادة).
- 4- وهؤلاءالذين أصبحوافي موقع مهاجرين،فاليعيشواأحرار آمنين.
- 5- لهم أن يرجعواإلى أي بلد شاءواالتابعة لإمبرطوريتنا وقيمواالمناشط(الكنائس)لهم دون أن يخافوا.
- 6- لأحد من أشرف السلطنة،ولا من الوزراء،ومن الموظفين والخدام والمواطنين للإمبراطورية يكسف كرامتهم ولايضرهم.
- 7- لأحد من الإمبراطورية أن يمس هؤلاء بسوء لحياتهم وأموالهم وكنائسهم،ولايحقرهم ولا يلقيهم في التهلكة.
- 8- حتى ولو أتى هؤلاء بناس آخرين إلى دولتنا هم أيضا داخلين في هذه الحقوق والحريات.

بإعلان هذه فرمان الإمبراطورية أقسم بالسيف الذي أحمله بإسم الله خالق السموات والأرض وصاحبه،وبإسم رسول الله نبينا العزيز(صلى الله عليه وسلم)،ما داموا في إطاعة أوامري وبقواصادقين،لأحد من أتباعي يعمل على عكس ما هو مكتوب في فرمان(المرسوم)قطعا.))

أصل هذاالفرمان موجود في كنيسة الفرانسيسكية في مدينة فوجنكة التابعة للبوسنة والهرسك.(1)

(1)صورة من وزارة الثقافة الجمهورية التركية. TC.KÜLTÜR BAKANLIĞI (1)

الحقوق التي يحتويها فرمان محمد الفاتح رحمه الله:

كانت الحقوق للأقليات الغير المسلمة في عهد الدولة العثمانية، كما ذكر في فرمان السلطان محمد الفاتح رحمه الله. وإذا عدنا الحقوق التي ذكرت في فرمان بالإختصار ينتج مايلي من الحقوق:

- 1- حق العبادة وإقامة القيم التي يعتقدونها،
- 2- الأمانة والمحافظة لأموالهم، وأرزاقهم، وملكياتهم، وخزائنها وحدائقهم، وحوالياتهم وسفنتهم، بالجملة وأعراضهم وأولادهم وخدامهم.
- 3- الحرية الدينية وتعيين المسؤولين الدينيين فيما بينهم،
- 4- العفو من خدمة العسكرية مقابل الجزية،
- 5- حق التجول، (السياحة)
- 6- حق التملك والعقار،
- 7- حق التجارة-البيع والشراء،
- 8- حق التدريس والتعليم،

أي كل ما هو من الضرورات لكل إنسان مهما كان شكله واعتقاداته والذي يسمى في الفقه الإسلامي الضرورات الخمس:

- 1- الدين،
- 2- النفس،
- 3- العقل،
- 4- النسل-العرض،
- 5- المال.

كانت الأقليات الغير المسلمة يستفيدون من كل هذه الحقوق مثل المسلمين دون نقصان. وكل هذا موجود في المصادر والعرف العثماني، وأن كل مانقل وكتب في القوانين قد طبق في عهد كل السلاطين العثمانيين دون التنازل من أي حق. وكان مصدرهم في هو الشريعة الإسلامية الغراء.

قصة عن أبي السعود أفندي المتعلقة في هذا الموضوع:

لما سمع السلطان سليمان القانوني مقتل المسلمي الأندلس، غضب غضبا شديدا وأصدر قرارا بأن يجمع جميع الغير المسلمين (الذين يعيشون في امان واطمئنان تحت حكم المسلمين) في ميدان بيازيد في إستانبول ويقتلهم جميعا بنية الإنتقام. السلطان غاضب ولا يجرأ أحد أن يوظه ويبين أن ما سيفعله السلطان ظلم (والله لا يحب الظالمين). حان وقت صلاة الجمعة وصعد شيخ الإسلام أبو السعود أفندي إلى المنبر وخطب، ثم وقف ليصلي بهم صلاة الجمعة والسلطان واقف خلف شيخ الإسلام، بدأ أبو السعود أفندي يقرأ الفاتحة ويقول: الحمد لله رب المسلمين، الناس من الخلف يوقظونه ويقولون: سبحان الله، سبحان الله، ولكن الشيخ يعيد ثلاثة مرات ويقول نفس الشيء. ثم يبدأ للصلاة من جديد ويتم الصلاة. أراد الشيخ أن يقول للسلطان أن الله سبحانه وتعالى رب العالمين جميعا. وهؤلاء الذميين الذين نعيش معا بريئون مما يفعله الفردناند وجنوده لمسلمي الأندلس. فهم السلطان سليمان مقصد الشيخ وقال: لقد أخذت الدرس الذي أعطيتني في الصلاة يا شيخنا، جزاك الله خيرا، وتراجع من قراره الذي اتخذه خطأ.

وفي العصور الأخرى وفي العهود السلاطين العثمانيين الآخرين كان الأمر لا يختلف عما كان في عهد السلطان محمد الفاتح تقريبا. وعلى سبيل الميثال ذكر المؤرخون أنه بين سنة 1520م إلى سنة 1530م في العهد العثماني أي في خلال عشر سنوات كان يعيش في استانبول: 16326 نسمة مقسمين على النحو التالي:

المسلمون: 9517.

المسيحيون: 5162.

اليهود: 1647.

كانوا يعيشون بلا خلافات. ولم يحدث بينهم طوال هذه المدة أي مشكلة. ولذلك عندما فتح العثمانيون البوسنة والهرسك وخيروا المسيحيون الصربيون بالإتباع إلى دولة يريدونها أو بالإتباع الدولة العثمانية قال الكرندال الصربي البروتاستان قوله المشورة: لأن أرى عمامة المسلمين العثمانيين خير من أن أرى كاووك الكرندال الكاتوليك. هكذا كان الوضع في الدولة العثمانية حتى إلى زمن آخر خليفة المسلمين السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله، عندما أسس دار الشفقة للعزة في استانبول أنشأ في داخلها مسجدا للمسلمين وكنيسة للمسيحيين وحورى لليهود. إلا الإستسنات القليلة التي صدرت من الأفراد المعاملات الشخصية الغير مناسبة شرعا. والله سبحانه وتعالى أعلم.